دوفصل‌نامه علمی - تخصصی
مطالعات تاریخی امت اسلامی
س۸، ش۱۵، بهار و تابستان ۱٤۰٤
صفحات ۵ تا ۲٦

Quarterly Journal
Historical Studies of Islamic Community
Vol.8, No. 15, Spring & Summer 2025
P 5 - 26

الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فی بغداد فی القرنين الرابع والخامس الهجريين

حيدر عوده الركابی[۱]

المستخلص

تعد الفترة التی نتكلم عنها من أهم الحقب التاريخية فی تاريخ الشيعة الإمامية؛ وذلک لكونها مرحلة انتقالية من زمن الحضور والمشاهدة للإمام عليه السلام إلى زمن الغيبة، مما أدى إلى تحمل علماء الإمامية مسؤولية مضاعفة والتصدی لقيادة الأمة. ومع تصديهم لهذه المسؤولية، عصفت بالمجتمع ظروف مختلفة كان لها الأثر البالغ والانعكاسات الواضحة سواء على المستوى العام أو الخاص، مما أثر فی بعض الأحيان سلباً على الحركة العلمية للشيعة الإمامية وتطورها. أصبح من الضرورى الاطلاع عن كثب على الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فی بغداد فی القرن الرابع والخامس الهجرى. وقد كتب الباحث عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فی بغداد وأهم الظروف التی مرت بها فی تلک الحقبة الزمنية، وتعاقب الولاة على بغداد وما له من أثر على الأصعدة المختلفة.

الكلمات المفتاحية:

بغداد، العصر البويهی، العصر السلجوقی، الأوضاع السياسية، الأوضاع الاقتصادية، الأوضاع الاجتماعية، الخلافة العباسية، الشيعة الإمامية، الحركة العلمية، الشيخ الطوسی.

---

[۱] دكترى تاريخ معاصر جهان اسلام، گروه تاريخ تمدن اسلامی، مجتمع تاريخ سيره و تمدن اسلامی، جامعه المصطفى العالميه، عراق. رايانامه: hydar_rekabi @ miu.ac.ir.

المقدمة

تشكل القرون الرابع والخامس الهجريين منعطفاً حاسماً فی تاريخ بغداد، عاصمة الخلافة العباسية، إذ شهدت تحولات سياسية كبرى تمثلت فی سيطرة البويهيين ثم دخول السلاجقة، مما انعكس على بنيتها الاجتماعية والاقتصادية. يتناول هذا البحث الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فی بغداد خلال هذه الحقبة، مسلطاً الضوء على تداعيات الصراع على السلطة، والسياسات المتبعة من قبل القوى الحاكمة، وتأثيرها فی حياة الناس اليومية. كما يبحث فی مظاهر الحياة الاقتصادية، والنظام الإقطاعی، والتركيبة الطبقية للمجتمع البغدادی، مع تحليل للعلاقات بين مختلف الطوائف والمذاهب. ويهتم البحث بشكل خاص بانعكاسات هذه الأوضاع على الحركة العلمية والثقافية، لا سيما لدى الشيعة الإمامية، الذين عايشوا فترة من التسامح النسبی تحت الحكم البويهی تلاها اضطهاد مع دخول السلاجقة، مما دفع كبار علمائهم كالشيخ الطوسی إلى الهجرة وتأسيس مراكز علمية جديدة. تهدف الدراسة إلى تقديم رؤية متكاملة عن التفاعلات المعقدة بين السياسی والاقتصادی والاجتماعی فی تشكيل ملامح بغداد خلال هذه الفترة الانتقالية المفصلية.

الوضع السياسی

يتناول هذا الفصل الأوضاع الاجتماعية والسياسية فی بغداد فی النصف الأول من القرن الخامس الهجری. ويُعد هذا العصر عصر الانهيار السياسی بالنسبة إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية، ولكنّه فی الوقت ذاته كان عصر نضجٍ فكریّ، فقد احتضنت هذه المدينة نخبة صالحة من كبار المفكرين وشيوخ المحدثين والعلماء والمتكلمين، ومنهم شيخنا الطوسی الذی دخلها سنة ۴۰۸هـ (الطوسی، ۱۴۱۷، ج۱، ص ۲۷).

وفی هذه الحقبة الزمنية التی بدأت بسيطرة البويهيين على العراق وتنتهی بدخول طُغرل بيک إلى بغداد عام ۴۴۷هـ كان العصر الذی نتحدث عنه يمتاز بظاهرة الصراع الفكری بين أرباب المدارس الكلامية والفقهية، وكان يتأرجح بين الحُرّية والتزمّت تبعاً لموقف السلطة الفعلية منه. وكان من أهم المظاهر هو الصراع بين النزعة السَّلفية والنزعة العقلية، وربما انعكس هذا الصراع على الواقع العملی للناس. وكانت السلطة فی الخلافة العباسية قد انحازت – خصوصاً منذ عصر المتوكل علی الله (۲۳۲–۲۴۷هـ) – نحو الاتجاه السَّلفی المتشدد، وأخذت تضطهد الفئات الأُخرى المخالفة له، وفی مقدمتها المعتزلة والشيعة ومَن

على شاكلتهم ممن له ميول فلسفية ونزعة إلى التوافق بين أحكام العقل وأحكام الشرع (الطوسى، ١٤١٧، ج١، ص ٢٧).

وقد انتهز السَّلفيون المتشددون فرصة موقف الخلافة هذا، فزادوا فى تقوية نفوذهم، وأصبحوا يفرضون آراءهم على الناس بالقوة، ويتدخلون فى كل صغيرة وكبيرة، سواءً ما يتعلق بشؤون الأفراد أم الدولة، حتى كانوا بمثابة حكومة متداخلة فيما بينها، فزالت هيبة الدولة ووقعت الفتن والاضطرابات داخل الدولة، مما أدى إلى استقلال الأُمراء بأطرافها وأجزائها، ولم يبق للخليفة العباسى سوى بغداد ونواحيها ما بين دجلة والفرات. فاضطرَّ الخليفة المستكفى بالله العباسى (٣٣٣-٣٣٤هـ) إلى دعوة البويهيين لتسلم السلطة فى العراق، ووضع حدٍّ للارتباك والفوضى، والتَّخلص من نفوذ الأتراك (الطوسى، ١٤١٧، ج١، ص ٢٨).

وكان البويهيون آنذاك قوة نامية فى شرق مملكة الإسلام. ودخل البويهيون بغداد سنة ٣٣٤هـ فسلكوا سبيلاً وسطاً تجاه جميع الميول والاتجاهات والفِرَق، فلم يتحزبوا لفئة معينة على حساب فئة أُخرى، ولم ينحازوا إلى رأى خاص، بل تركوا الناس أحراراً فى معتقداتهم وآرائهم. ذلك أنهم كانوا يُدركون أنهم رجال دولة وأرباب سياسة، وأنّ همّهم الأكبر يجب أن يتجه إلى إقرار الأمن والنظام. ويدل على ذلك أنهم على الرَّغم من كونهم شيعة كانوا يفرضون أوامر مشددة على هذه الطائفة التى يلتقونها فى الانتماء المذهبى، لحد منعهم من إقامة شعائرهم الدينية التى قد تُسبب إثارة الحزازات ونشوب الفتنة (الطوسى، ١٤١٧، ج١، ص ٢٨). وقد نفوا من بغداد الشيخ المفيد وهو فقيه الشيعة فى ذلك الوقت، فغادرها فى عامى ٣٩٣هـ و٣٩٨هـ بعد الحوادث الطائفية. ومع أنّ البويهيين كانوا شيعة، إلَّا أنهم لم يحاولوا تسليط أبناء مذهبهم على أهل السُّنة، والذى مكَّن البويهيين من الاستقرار والأمن فى البلاد سياستهم الحكيمة المتسامحة تجاه جميع السكان. فهدأت الأحوال، واستقرّت الأمور فى أغلب الأوقات، وانصرف الناس إلى العمل من أجل ترقية الحياة المادّية والرُّوحية، وعادت بغداد قبلة العلم والثقافة على النحو الَّذى كانت عليه فى العصر العباسى الأوّل (١٣٢-٢٣٢هـ) أيام خلافة المأمون (الطوسى، ١٤١٧، ج١، ص ٢٨). والواقع أنّ المجتمع الإسلامى خطا فى العصر البويهى خطوات واسعة فى مضمار التقدم العلمى لا تزال آثاره باقية حتى الوقت الحاضر، ولهذا اعتُبر من أزهر العهود الثقافية فى هذه البلاد لإطلاق الحُرية الدينية، والحُرية الفكرية، والحُرية القلمية، وقد تميَّز بذلك بوجه خاص عضد الدولة (٣٦٧-٣٧٢هـ). وهذه الحُرّيات كانت السبب فى كثرة من نبغ فى العلوم والآداب فى ذلك العصر

من مختلف المذاهب الإسلامية، أمثال: الكلينى، وابـن قولويـه، والصـدوق، والشـيخ المفيـد، والشريف الرضى، والشـريف المرتضـى، والشـيخ الطوسـى، والكثيـر مـن شـيوخ المـذاهب الإسلامية والفرق الكلامية أمثال: المـاوردى، والشـيرازى الفيـروز آبـادى، وإمـام الحـرمين الجُوينى، والباقلانى، وأبو الحسين البصرى، وابن الصّباغ الشافعى، والـدامغانى الحنفـى، وأبـو الوفاء البغدادى الحنبلىّ، وغيرهم من العلماء الذين عجّ بهم القرن الخامس الهجرى (الطوسى، ۱۴۱۷، ج۱، ص ۲۷).

الدولة البويهية

نذكر تأسيس الدولة البويهية فى هذا الفصل لما لها من أهميـة كبـرى فـى تطـور ورَفـد الجانب الثقافى والعلمى لدى الشيعة؛ لأنها حكمت حقبة مهمة فى تاريخ التشيع، ولقد دعمـوا الحركة العلمية فى بغداد والدول التى تحت سيطرتهم فى القرنين الرابع والخـامس الهجـريين. فقد شكل العصر العباسى الثالث ردة فعل مناهضة للنفوذ التركى الذى تمكن من السيطرة على مقدرات الخلافة العباسية فى العصر العباسى الثانى. واختلف هذا العصر فى مظاهره عن العصر العباسى الثانى من حيث التركيز على المشرق.

والبويهيون: هم بنو بويه، وهم: على، وحسن، وأحمد، من سلالة من الديلم – جنوب بحر الخزر – حكموا فى غرب إيران والعراق (ابـن كثيـر، ۱۴۰۷، ج۱۱، ص ۱۷۳). كـان أبـوهم شجاع بويه صياد سمک، وكان له أولاد: على والحسن وأحمد. فعلى أبو الحسن عماد الدولة، والحسن أبو على ركن الدولة، وأحمد أبو الحسن معز الدولة. وينحدر بنـو بويـه مـن أعـالى جبال الديلم ويرجعون فى نسبهم إلى الملوک الساسانية حسب ادعائهم (ابن خلدون، ۲۰۰۰، ج۳، ص ۴۹۰).

وأسسوا دولاً انفصالية فى فارس والأهواز وكرمان والـرى وأصـفهان وهمـدان، وبسـطوا نفوذهم الفعلى على العراق، فشاركوا الخلافة العباسية فى حكمها. وعظم نفـوذ هـذه الأسـرة حتى سمى باسمها عصر من عصور الخلافة العباسية. وعندما رأى الراضى بالله أن هذه العائلة لها قوة وقدرة على إدارة الأمور، جعل علياً أمير الأمراء على بغداد، وأعطى لكل واحـد مـن الثلاثة لقباً خاصاً: فقد لقب علياً بـ "عماد الدولة"، ولقب حسن بـــ "ركـن الدولـة"، ولقـب أحمد بـ "معز الدولة". إذ كان لكل واحد من هؤلاء الثلاثة مركز حكومة خاص بـه، وكانـت عاصمة حكومة عماد الدولة شيراز، وعاصمة حكومـة ركـن الدولـة مدينـة الجبـال والـرى،

وعاصمة حكومة معز الدولة هى العراق – بغداد (ابن خلدون، ٢٠٠٠، ج٣، ص ٥٧٠-٥٧٦). وقد توفى على بعد أربع أو ست سنوات من الحكم، وتولى من بعده منصب الحكم فى شيراز ابن أخيه عضد الدولة؛ لأن علياً لم يكن له ولد من الذكور. وبعد أن مات أحمد فى بغداد خلفه ابنه عز الدولة البختيار. وفى عام ٣٦٦هـ هجم عضد الدولة على بغداد وعزل عز الدولة عن الحكومة (ابن مسكويه، ١٣٧٠، ج٦، ص ٢٧٢-٢٧٦).

ويذكر النووى بداية اعتقاد البويهيين حيث يقول: "وكانت بداياتهم الاعتقادية والسياسية بعد دخول بلاد الديلم الداعية الشيعى الحسن بن على الملقب بـ(الأطروش)، والذى أسلم فى عهده كثير منهم، فقد عمر البلاد بالمساجد، كما تمكن من تأمين الديلم ضد أعدائهم المجاورين، وقد قادهم نحو أربعة عشر عاماً وتوفى فى عام ٣٠٤هـ عن عمر تسعة وسبعين سنة، ولقب بالناصر العلوى والناصر للحق" (النويرى، ١٤٢٣، ج٢٥، ص ٩٦). وفى نفس المضمون بعد سرد الأحداث تستنتج الدكتورة وفاء: "ويتضح من هذا أنهم نشأوا نشأة شيعية ثورية، ويعنى ذلک اعتقادهم بأحقية على وأولاده بالخلافة، وبأن بنى العباس قوم خادعون لبنى على غاصبون لحقهم" (وفاء محمد على، ١٩٧٧، ص ١٦-١٧).

ولقد اشتهرت هذه الأسرة على يد الأخ الأكبر على بن شجاع بن بويه الذى ولاه مرداويج الزيارى بلاد الكرج (ياقوت الحموى، ١٩٩٥، ج٤، ص ٤٤٦). ولقد بدأت التطورات تتسارع فى سيطرة آل بويه على المدن، فقامت الدولة العباسية منتهزة النزاع والصراع بين البويهى والزيارى، وحاولت استعادة الأهواز، فأرسلت قوة بقيادة بجكم لاستردادها وطرد البويهيين منها. فوقف هذا عند حدود الأهواز القريبة من العراق، واضطر القائد إلى التراجع تحت ضغط الأحداث العسكرية بعد ما مالت كفة البويهيين للرجحان. ونتيجة لذلک تم لبنى بويه توسيع قاعدتهم، وأصبح نزولهم من الأهواز إلى العراق أمراً ميسوراً، فراحوا يراقبون الأحداث فى عاصمة الخلافة (طقوش، ٢٠٠٩، ص ٢٢٠-٢٢٢).

سياسة البويهيين فى بغداد

بعد سيطرة البويهيين على زمام السلطة فى بغداد، سلكوا سبيلاً وسطاً بين جميع الميول والاتجاهات، فلم ينحازوا لفئة معينة على حساب فئة أخرى، ولم يتحيزوا لجانب من الجوانب الفكرية والعقائدية، بل تركوا الناس أحراراً فى عقيدتهم وآرائهم. ذلک أنهم كانوا رجال دولة وأرباب سياسة، وأن همهم الأكبر يجب أن يتجه إلى إقرار الأمن والنظام، ولكى يتحقق للحاكم هذا الغرض عليه أن يساوى بين الناس جميعاً (الحكيم، ١٤٠٠، ص ٢٣).

ولقب الخليفة المستكفى أبناء بويه الثلاثة بألقاب "معز الدولة" و"عماد الدولة" و"ركن الدولة". كما أن المستكفى كرم معز الدولة فأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطة وعقد له لواء، وكما أمر أن تضرب ألقاب بنى بويه على السكة. إن أول من نقش اسمه على الدنانير والدراهم مع الخلفاء هو معز الدولة بن بويه (وفاء محمد على، ۱۹۷۷، ص ۵۱).

وأما منصب "أمير الأمراء" الذى كان موجوداً فى الدولة العباسية، فقد أحدث بنو بويه تغييراً عليه. والذى استحدث عام ۳۲۴هـ كان فى الأساس منصباً عسكرياً، فقد قاموا بتوسعة مفهومه ليشمل عدداً من الوظائف العسكرية ومهام إدارية أيضاً. ولم يحدث التغير دفعة واحدة بل تدريجياً مرحلياً، فبدأ معز الدولة بإبدال وزير الخليفة بكاتب يعنى بشؤون الخليفة الخاصة، وأصبح الخليفة يتقاضى مرتباً كالآخرين ولم يعد بحاجة إلى الوزير (سعادة، ۱۹۸۸، ص ۴۱). ومن الجانب العلمى، دعم بنو بويه الحركة العلمية فى بغداد حتى وصلت إلى أن تكون محط أنظار العلماء والمفكرين من مختلف أنحاء العالم الإسلامى.

ويقول آدم متز: "إن عضد الدولة البويهى كان يحب العلم والعلماء، ويجرى الجرايات على الفقهاء، والمحدثين والمتكلمين، والمفسرين والنحاة والقراء والنسابين والأطباء والحساب والمهندسين" (متز، ۱۹۶۷، ج۱، ص ۴۶).

ويقول الدكتور مصطفى جواد: "يُعد العصر البويهى فى العراق من أزهر العهود الثقافية فى هذه البلاد لإطلاق الحريات الدينية والحرية القلمية. وكان السلطان البويهى عضد الدولة عاقلاً فاضلاً، حسن السياسة، كثير الإصابة، شديد الهيبة، ثاقب الرأى، محباً للفضائل وأهلها، مانعاً فى أماكن الحرام، ناظراً فى عواقب الأمور" (جواد، ۱۹۶۷، ص ۵).

وإن العامل السياسى له دور كبير فى نهضة العلوم، كما يقول الفضلى فى التشريع الإسلامى حيث يقول: "إن النهضة كانت فى أيام آل بويه الممتدة من ۳۳۴-۴۴۷هـ وآل بويه كما هو معلوم كانوا يتشيعون لأهل البيت، وعملوا على نشر فكرهم وتوسيع رقعة مذهبهم، فشجعوا لذلك وآزروا علماءهم. ومما كان له الأثر فى انطلاق هذه النهضة العلمية التى قادها الشيخ المفيد وتلامذته، وكان عضد الدولة من تلامذة الشيخ المفيد" (الفضلى، ۱۴۱۳، ص ۳۲۵).

ولكن مع هذا الإطراء على الدولة البويهية من المؤرخين والإشادة بجهودهم وما قدموه من دعم للعلم والعلماء وعدم التفرقة بين المذاهب، نرى بعض المؤلفين يصفونهم بأوصاف تخالف ما نقلناه من الكتب والمصادر المعتبرة. ومن هذه الأقوال ما وجدناه فى بعض

المصادر المتأخرة التى قد تكون متأثرة بمواقف مذهبية ضيقة، إلا أن الإنصاف التاريخى يقتضى الاعتراف بأن البويهيين أسهموا إسهاماً كبيراً فى ازدهار الحياة الفكرية والثقافية فى بغداد، وأن تسامحهم الدينى كان له الأثر البالغ فى ظهور تلك النخبة الفريدة من العلماء والمفكرين من مختلف المشارب والاتجاهات.

الدولة السلجوقية

تشعبت آراء المؤرخين وتباينت حول أصل السلاجقة الذى يحيط به الغموض. فالسلاجقة أنفسهم صدقوا أسطورة تنسبهم إلى آل أفراسياب على اعتبار أنهم بقية منهم (أبو نصر، ٢٠٠١، ٢٧-٢٨). بينما يرى البعض الآخر أن السلاجقة من أولاد طقشورميش وأحفاده – وطقشورميش بمعنى "ذلك الذى يهاجم الغير ويحمل عليهم"، وهو ابن قوقو جو خراجه، ويشير إلى اللون الأخضر الذى كان يميل إليه السلاجقة (أبو نصر، ٢٠٠١، ص ٢٧-٢٨). ويجمع معظم المؤرخين على أن السلاجقة يرجع أصلهم إلى الأتراك الغز الذين ظهروا فى التاريخ كمجموعة تركية تابعة للإمبراطورية التركية فى القرن السادس الميلادى، فالسلاجقة أحد فروع هذه القبائل التركمانية الغزية (أبو نصر، ٢٠٠١، ص ٢٩).

الوضع الداخلى فى بغداد عشية زحف السلاجقة باتجاه الغرب

كان الوضع الداخلى فى بغداد آنذاك مزعزعاً، تشوبه حالة من الفوضى وعدم الاستقرار مما ساعد على تمهيد الطريق أمام مهمة دخول السلاجقة إليها، وضم العراق إلى دولتهم التى أسسوها فى خراسان وإيران، وذلك بفعل الخلافات السرية داخل البيت البويهى من جهة، وبينهم وبين الجند من جهة أخرى، كما انتشرت الفتن (طقوش، ٢٠٠٩، ص ٢٣٨-٢٣٩).

السلاجقة فى العراق ودخولهم بغداد

سنة ٤٤٧هـ بدت نية الملك السلجوقى طغرلبك فى الاستيلاء على العراق، فأعلن أول ما أعلن أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة، وقد مهد بهذا الشعار ليبرر زحفه إلى العراق. ولم يكتف بهذا الإعلان، بل أضاف إليه أنه يريد المسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر الفاطمى صاحبها، وراح يعد العدة للفتح، فاتصل بأنصاره فى الدينور وقرميسين وحلوان، خاصة لقرب هذه المناطق من العراق، كما اتصل بغيرها مما هو أبعد منها، وأوصاهم بإعداد الميرة وجمع الأقوات والعلوفات، والتهيؤ للتقدم عندما يطلب إليهم ذلك (الأصفهانى، ١٣١٨، ص ١٩).

وقد ذكر عدد من المؤرخين كابن الجوزى فى المنتظم، وصاحب البداية والنهاية والذهبى،

أن الخليفة القائم هو الذى استدعى السلاجقة إلى بغداد، وليس وزيره ابـن المسـلمة (جـواد، ۱۹۷۸، ص ۲۱). كان طغرلبک شديد الامتنان للدعوة التى وجهت إليه، فدخل بغداد فى شهر رمضان من عام ۴۴۷هـ واعداً بتأمين سلامة سكانها وسلامة الملک البويهى الملک الـرحيم، لكنه حنث بالوعدين. وكان هـذا التحـول بمثابـة كارثـة حلـت بالخلافـة، وذهبـت السـلطة السلجوقية إلى حد منع الخليفة من تشكيل جيش خاص به (سعادة، ۱۹۸۸، ص ۴۸).

وبعد دخولهم، سرعان ما انحازوا إلى الاتجـاه السـلفى المتشـدد، وأسـرفوا فـى الفتـک والبطش، ووقعت فى بغداد أحداث خطيرة بسبب انحيازاتهم المذهبية. وتُعد المدة بين ۴۴۷–۴۴۹هـ من أعنف ما شهدته بغداد من أحداث وسفک دماء، وقد ضاع من خلالها كثيـر مـن التراث الشيعى، وأخمد صوت الفكر والعلم، وتعرض رجاله للاضـطهاد والتنكيـل. ففـى عـام ۴۴۸هـ كُبست دار شيخ الإمامية الأكبر أبى جعفـر الطوسـى، وأحرقـت كتبـه، ونهبـت داره بمحضر من الناس (ابن الجوزى، ۱۴۱۵، ج۸، ص ۱۷۳)، وأُحرق كرسى الكلام الذى منحـه الخليفة القائم بأمر الله لمدرسة بغداد (الحكيم، ۱۴۰۰، ص ۲۷). وعلى إثر ذلک غادر الشـيخ الطوسى بغداد إلى النجف الأشرف، وقُتل أبو عبد الله الجلاب علـى بـاب دكانـه، وكـان مـن علماء الشيعة (ابن كثير، ۱۴۰۷، ج۱۲، ص ۶۹). وفى عام ۴۵۱هـ أُحرقت بغداد، ومنطقة مـا بين السورين، وخزانة العلم التى أوقفها الوزير سابور. ويعقـب الأسـتاذ محمـد عبـد الـرحيم غنيمة على موقع دار العلم العقائدى بقوله: "إن دار العلـم السـابورية أصـبحت مـن مـواطن التشيع، ومركزاً هاماً من مراكزه، وأخذت طابعاً شيعياً قويـاً، وقـد أتـت الحملـة السـلجوقية الضاربة على معظم المؤسسات الدينية والتعليميـة". ويقـول ابـن الأثيـر: "أصـبحت الكتـب والنفائس الأخرى هدفاً لأطماع الموظفين وأصحاب الغنائم" (ابن الأثيـر، ۱۴۰۷، ج۱۰، ص ۳). ولقد عمد السلاجقة إلى تأسيس دور علم بديلة غرضها مكافحة التشيع، ومنها المـدارس النظامية (الأمين، ۱۳۸۵، ص ۲۲۲).

وقد استخدم الوزير السلجوقى نظام الملک هذه المدارس سلاحاً لمقاومة الفكر الشـيعى، وقد أشارت رسالته للسلطان ألب أرسلان إلى ذلک بقوله: "جعلت لک من خراسـان جنـداً ينصرونک ولا يخذلونک، ويرمـون دونـک بسـهام لا تخطـى، وهـم علمـاء، فقـد جعلـتهم بالإحسان إليهم من أعظم أعوانک". وكانت المدرسة النظامية قد تبناهـا أصـحاب المـذهب الشافعى، وأصبحت أداة للصراع بـين مـذاهب المسـلمين (الحكـيم، ۱۴۰۰، ص ۲۸). وبعـد عامين من دخول طغرلبک بغداد، ثار عليه أخوه إبراهيم إينال، واضطر طغرلبک إلى الذهاب

إلى همدان. فاستغل البساسيرى الفرصة وحصل على مساندة عسكرية من الخليفة الفاطمى، ودخل بغداد على رأس قوة ضئيلة عام ٤٥٠هـ فلم يواجه مقاومة شديدة بما أن الشعب كان متعاطفاً معه. وفى المقابل، أمر البساسيرى جيشه بعدم الإقدام على السلب والنهب على عكس ما فعل طغرلبک، كما أنه عامل الناس بالحسنى (سعادة، ١٩٨٨، ص ٤٩).

وإلى جانب ذلک، فقد جاء فى المصادر أن السلاجقة كانوا قد أشاعوا ظاهرة التدنى الخلقى والفساد الاجتماعى، والتى تخالف عادات وأخلاق المجتمع العربى والإسلامى. فقد ذكر ابن الجوزى أنه فى عام ٤٦٩هـ وعام ٤٧٩هـ أمر الخليفة المقتدى بأمر الله بإزالة دور الفسق ببغداد وكسر الملاهى (الأنصارى، ١٩٨٧، ص ٥٦). وقد أقام طغرلبک فى بغداد ثلاثة عشر شهراً، عمل فى أثنائها على تدعيم النفوذ السلجوقى فى عاصمة الخلافة وتوثيق صلة السلاجقة بالخليفة. كما عملت الخلافة من جانبها على تقوية الروابط بينها وبين هذه القوة الجديدة، فتزوج الخليفة القائم من أرسلان خاتون خديجة ابنة داوود جغرى بک، أخ طغرلبک، وذلک فى عام ٤٤٨هـ فتم بذلک التقارب بين البيتين العباسى والسلجوقى، واستقر نفوذ السلاجقة فى العراق (طقوش، ٢٠٠٩، ص ٢٤٠).

ولكن مع بقاء الجند السلاجقة فى بغداد، كانت اعتداءاتهم مستمرة، وكان أول من يقع فى قبضتهم الفلاحون فى القرى المجاورة لبغداد، حيث كان الجنود يرتكبون كل صنوف الاعتداء من سرقة واغتصاب للنساء وقتل للأنفس البريئة. وما أن يصل الخبر إلى بغداد حتى تعم الفوضى والخوف والذعر، فيهرب الناس إلى دور الخلافة، أو يهربون إلى الجانب الآخر من بغداد. أما إذا طال مكوثهم، فمعنى ذلک حدوث الإفلاس لخزينة الدولة، والكارثة بالنسبة للعامة بما يحدث لهم من خوف وفزع نتيجة الاضطرابات، وما يحدث من بقائهم ودخولهم الدور على أهلها من اغتصاب للنساء وسرقة للدور واعتداءات على الحمامات النسوية. ومن أمثلة الإتاوات التى كان يفرضها السلاجقة على حكومة بغداد، ما حدث فى عام ٤٥٥هـ عندما عقد السلطان طغرلبک ضمان بغداد على شخص بمبلغ ١٥٠٠٠٠ دينار. وكان طبيعياً أن يسعى الضامن إلى سداد هذا الضمان. وفى عام ٥٣١هـ قبض وزير السلطان مسعود أبو البركات بن مسلمة على أبى الفتوح صاحب المخازن وطالبه بمبلغ ١٠٠٠٠٠ دينار على أن يتحصلها من الناس ومن دار الخلافة (فهد، ١٣٨٧، ص ٤٨). وقد حفظ لنا التاريخ بعض الأعمال التى قام بها السلاجقة مما يندى لها جبين الإنسانية، فقد أحرق طغرلبک مكتبة بغداد التى كانت عامرة بالكتب. وإليک هذه الوثيقة التاريخية التى تعكس لنا صورة عن المأساة

التی حلت بالشیعة:

یقول ابن الجوزی: "وفی هذه السنة – یعنی: سنة ۴۴۸ – أُقیم الأذان فی المشهد بمقابر قریش، ومشهد العتیقة، ومساجد الکرخ بـ 'الصلاة خیر من النوم'، وأُزیل ما کانوا یستعملونه فی الأذان 'حی علی خیر العمل'، وقُلع جمیع ما کان علی أبواب الدور والدروب من 'محمد وعلی خیر البشر'، ودخل إلی الکرخ منشد وأهل السنة من باب البصرة، فأنشدوا الأشعار فی مدح الصحابة، وتقدّم رئیس الرؤساء إلی ابن النسوی بقتل أبی عبد اللّه بن الجلاب شیخ البزازین بباب الطاق، لما کان یتظاهر به من الغلو فی الرفض، فقُتل وصُلب علی باب دکانه، وهرب أبو جعفر الطوسی ونهبت داره" (السبحانی، ۱۴۱۸، ج۲، ص ۲۹۹). وفی آخر مطافهم، وبعد موت ملکشاه، انقضی عهد توسع الإمبراطوریة وتماسکها، وأدت الصراعات بین الإخوة إلی إضعاف السلاجقة وتدمیرهم النهائی (سعادة، ۱۹۸۸، ص ۵۵). انقسم السلاجقة علی أنفسهم، وانقسمت الدولة إلی عدة دویلات متنازعة فیما بینها، ولم تستطع الخلافة السیطرة علی هذه الدویلات ولا استرداد قوتها وإظهارها، بل بقی الخلیفة ضعیفاً ینضم إلی جانب المنتصر، عدا بعض المحاولات التی قام بها بعض الخلفاء للتخلص من السیطرة السلجوقیة.

الوضع الاقتصادی

مظاهر الحیاة الاقتصادیة

انقسم المجتمع العباسی من الناحیة الاقتصادیة خلال القرن الرابع والخامس الهجریین إلی ثلاث طبقات:

۱– طبقة العامة: وتشمل الفلاحین وأهل الحرف والصناعة والباعة المتجولین.

۲– الطبقة الوسطی: تشمل عامة التجار والموظفین وأصحاب الملکیات الصغیرة من الأراضی.

۳– طبقة الخاصة: وعلی رأسها الخلیفة وعائلته وأقرباؤه، ویدخل فیها کبار الموظفین (کالوزراء ورؤساء الکتاب وکبار التجار) (المسعودی، ۱۹۶۵، ج۴، ص ۳۳۶).

اعتمد الاقتصاد بالدرجة الأولی علی الأرض التی تُعد أهم حقل فی الإنتاج الزراعی فی ذلک العصر. ولا أدل علی ذلک مما قام به الأمیر ناصر الدین برأی من الوزیر حامد بن العباس، حیث صرف عشرین ألف درهم لحفر السقایة بواسط، واشتری البقر والبذور، وطالب الأقویاء بالزراعة من أموالهم مشارکة، فزرع الناس رغبة ورهبة، فحصل الثمن ستة وثلاثون

ألف دينار عيناً من بيدر واحد، وكان الربح أضعافاً مضاعفة على ما أنفق (التنوخى، ١٩٩٥، ج٨، ص ١٥٤). وكانت أراضى الخلافة منتشرة فى مختلف أنحاء العراق، وتوسعت تدريجياً إلى مناطق أخرى بالشراء والمصادرة (الصابى، ٢٠٠٣، ص ٣٣٨). وكان الخليفة يمنح الإقطاعات من أراضيه الخاصة، فيذكر المسعودى ذلك بقوله: "بأن يقطع السلطان رجلاً أرضاً فتصبح له رقبتها" (المسعودى، ١٩٦٥، ج٤، ص ٣١٥)، أى أن الأرض تصبح ملكاً لصاحب الإقطاع. وتوسع العباسيون فى منح الإقطاعات للقادة الأتراك بتأثير سيطرتهم، ولم تكن هذه الإقطاعات بديلاً عن الرواتب، بل كانت امتيازات ومنحاً إضافية. ولجأت الخلافة إلى اتباع سياسة الضمان بإعطاء مناطق ومقاطعات يتولى الضامن بموجبها جباية الضرائب بمساعدة الحكومة، وقد يكون الضامن موظفاً أو قائداً أو تاجراً أو وزيراً. وكان الدافع من اتباع هذه السياسة عجز الحكومة عن دفع رواتب الجند والموظفين ونفقات البلاط والحاشية (المسعودى، ١٩٦٥، ج٤، ص ٤٢٥).

وقد توسع الجند فى الإقطاع واستولوا على معظم أراضى بغداد وإقطاعات الخليفة الخاصة وأراضى الخراج، وامتد الأمر ليصل إلى أراضى الوقف (ابن مسكويه، ١٣٧٠، ج٢، ص ٩٦، ٩٩، ١٧٣، ٢٦٧؛ ابن الجوزى، ١٤١٥، ج٨، ص ٦١؛ السامرائى، ١٩٧٠، ص ٤٢-٦٠). ونتيجة السيطرة على الأراضى الزراعية، تراجع النشاط الزراعى الذى كان منتشراً فى أيام المقتدر بالله (التنوخى، ١٩٩٥، ج١، ص ١٢٩)، وتدهور وضع المزارعين مما دفعهم إلى إهمال الأرض وترك أعمالهم تجنباً لابتزازهم وإرهاقهم فى دفع الرسوم والضرائب الإضافية (الصابى، ٢٠٠٣، ص ٣٣٨-٣٣٩؛ ابن مسكويه، ١٣٧٠، ج٢، ص ١٠٦). وقد تطاول بعض الوزراء والأمراء بالاستيلاء على غلات أهلها دون رضاهم، وكان بعضهم يأخذ الضيعة ونتاجها من غير وجه حق تظلماً وتعسفاً (التنوخى، ١٩٩٥، ج١، ص ١٥٨). وأدرك البويهيون ضرورة معالجة الأزمة الزراعية بإصلاح القنوات والسدود، وحاول معز الدولة البويهى إصلاح الأراضى فى السواد، كما اهتم بمشكلة موعد جباية الخراج، إلا أن العناية بالأرض تلاشت أمام سياسته التى لجأ إليها فى حل مشكلة إعالة جيشه وفراغ خزينته.

ولقد شغلت بغداد موقعاً مهماً فى السياسة العباسية. لقد أصبح من المعلوم أن أحد أسباب اختيار موقع بغداد كان اقتصادياً، وكان لهذا السبب آثار موفقة، فقد كان موقع بغداد البرى والمائى مهماً لوصول البضائع إليها. فقد كانت السلع تردها من الهند (الظلاعين، ٢٠٠٩، ص ٦١٩)، والصين وأواسط آسيا ومرو (الظلاعين، ٢٠٠٩، ص ٦٢٠)، وخراسان والأهواز

ونیسابور وأرجان وکرمان (الظلاعین، ۲۰۰۹، ص ۶۲۱)، وبلخ والیمن والجزیرة العربیة والشام ومصر (الظلاعین، ۲۰۰۹، ص ۶۲۲)، والمغرب والأندلس وأرمینیة وسواحل إفریقیا الشرقیة والموصل (الظلاعین، ۲۰۰۹، ص ۶۲۳)، والجزیرة والکوفة والبصرة وبلاد الروم (الظلاعین، ۲۰۰۹، ص ۶۲۴).

وکان ما بأسواق بغداد من أصناف السلع یفوق ما بأسواق البلدان التی تجلب منها البضائع، ویعود هذا إلی عدة عوامل نذکر منها:

الأول: سهولة المواصلات بین بغداد وبین بلدان الشرق والغرب، وکان معظمها یقع فی قبضة العباسیین.

الثانی: الثراء الواسع الذی بلغه العباسیون مع تأثرهم بمظاهر الحضارة الفارسیة، ورغبتهم الشدیدة فی تزوید قصورهم بمثل هذه السلع النادرة.

الثالث: محاولات الطبقات العامة تقلید الطبقات الغنیة، مما ترتب علیه کثرة الدائن والمدین.

الرابع: ولع أهل العراق وحبهم للأسفار البعیدة، خاصة أهل البصرة.

الخامس: اتساع رقعة الدولة الإسلامیة ووحدة النقد.

الجانب الاقتصادی فی بغداد: الخاصیة الاقتصادیة لموقع منطقة بغداد

فی النقل: "وأنت یا أمیر المؤمنین علی الصراة ودجلة، تجیئک المیرة من المغرب فی الفرات، ومن الشام ومصر وسائر تلک البلدان، وتحمل إلیک طرائف الهند والصین والسند والبصرة وواسط فی دجلة، وتجیئک میرة أرمینیة وأذربیجان وما یتصل بها من سامراء، وتجیئک المیرة من الروم وآمد ومیا فارقین وأرزن والثغور الجزیریة، ومن الجزیرة والموصل وبلاد، وتصیبنی إلی مشارف الشام فی دجلة" (الطبری، ۱۳۸۷، ج۷، ص ۶۱۵-۶۱۷). هذا ما ذکره له عن الموقع صاحب بغداد للمنصور عندما سأله، والذی خص فیه العامل الاقتصادی من جهة النقل والاتصال بالعالم (ابن الجوزی، ۱۹۹۵، ج۵، ص ۱۲۹)، إذ یمکن السیطرة علی جمیع تلک الطرق من موقع منطقة بغداد، إذ تکون عقدة تلتقی عندها الأنهار، فضلاً عن توسطها العراق والعالم الإسلامی. وللأنهار دورها فی هذه العقدیة، لیس لاستخدامها المباشر کطرق سهلة للنقل فحسب، بل أیضاً لعبت ضفافها نفس الدور فی النقل البری، إذ توفر الغذاء والمأوی للقوافل لاتصال العمران وتوفر محطات الاستراحة منها.

إن العلاقات السکانیة فی منطقة بغداد وبقیة العالم فی تلک الفترة تجعل من منطقة بغداد

عقدة مواصلات، إذ يمر بمنطقة بغداد العديد من الخطوط العالمية فى ذلك الوقت، ثلاث منها نهرية وطرق برية، فهى أسهل موقع تتصل فيه الطرق من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، وبقيت كذلك حتى اكتشاف رأس الرجاء الصالح. ومن أهم هذه الطرق:

١- بغداد – واسط – البصرة – ميناء الخليج العربى

٢- بغداد – الحج – مكة

٣- بغداد – الكوفة – خط مستقيم إلى الحجاز

٤- بغداد – الأنبار – يصعد إلى الرقة (الشام والأناضول)

٥- بغداد – الموصل مع دجلة إلى الشام

وهذه مناطق العالم الإسلامى، ومنها أيضاً إلى الموانئ الرئيسية إلى الخليج العربى عن طريق خط بغداد – البصرة، ومنها إلى الصين والهند ودول آسيا، ومن خط بغداد – الموصل مع دجلة إلى دول البحر المتوسط وشمال إفريقية. وهى إلى الآن أهم الموانئ العالمية. وتأتى خصوصية الموقع الاقتصادية لتضيف لهذه المنطقة أهمية خاصة، فتصبح هذه المنطقة أهم المناطق.

فى البداية تأتى أهمية موقع منطقة بغداد من حيث كونها عقدة الطرق والمواصلات ليس للعالم الإسلامى فقط بل للعالم القديم بأجمعه. وإن موقع هذه المنطقة أتاح لها الانتقال والاتصال بجميع بلدان العالم بشكل حتمى كما ذكرنا سابقاً، إذ كانت أهم طرق النقل هى الموارد المائية والأنهار، ولوجود دجلة والفرات اللذين يتعانقان فى منطقة بغداد واللذان يمتدان من بلاد أرمينية قاطعين المسافات الشاسعة، حتى تمتد الطرق لتوصلها إلى العالم الشرقى والغربى. وقد تبين لنا فى الفصل الاقتصادى حتى أصبحت مسارات هذه الطرق خطوطاً للمستقرات، جذبت كما يجذب المبرد الحديد إلى المغناطيس، مما عزز هذه الطرق وأثبتها. وللبعد التاريخى للمنطقة أثره فى موقعها الاقتصادى، إذ كان فيما سبق سوق بغداد العالمى وسوق الثلاثاء وغيره من الأسواق التى كانت شهرتها بالغة الصيت عند العرب خصوصاً. ورجعة أخرى لرواية دهقان بغداد تختصر لنا ذلك، إذ يذكر له أنك تسيطر على مر الطرق العالمية وتعتبر منطقتك سوقاً عالمية لكونها عقدة المواصلات السابقة. إن بغداد كانت فى أيام الخلافة العباسية المركز الذى تخرج منه جميع الطرق، فمنها كان يخرج خمسة طرق كبيرة إلى البصرة وإلى الكوفة والأنبار وتكريت وحلوان، تصلها بأقاصى الدولة (لسترنج، ١٩٥٤، ص ١١٠). فهى جزيرة من دجلة والفرات، دجلة شرقها والفرات غربها،

مشرعة الدنیا: کل ما یأتی فی دجلة من واسط والبصرة والأبلة والأهواز وفارس وعمان والیمامة والبحرین وما یتصل بذلک إلی الصین، فإلیها یرقی وإلیها ترسو، وکذلک ما یأتی من الموصل ودیار ربیعة وأذربیجان وأرمینیة، وما یحمل فی السفن فی دجلة، وما یأتی من دیار مصر والرقة والشام والثغور ومصر والمغرب مما یحمل فی السفن (الیعقوبی، ۱۸۹۲، ص ۲۳۷-۲۳۸).

فی الوقت نفسه، فهی بؤرة (موقع بؤری) تلتقی عندها الأشعة ثم تفترق إلی:

۱- طریق شرقی إلی حلوان ومنها إلی إیران وأواسط آسیا.

۲- طریق جنوبی إلی واسط والبصرة.

۳- طریق جنوبی إلی الکوفة، ثم إلی الجزیرة، إلی الحجاز.

۴- طریق غربی إلی الرطبة، ومنه إلی سوریا ومصر.

ویمکن اعتبار رفض المنصور لبارما هو عدم اتصالها بالدول التی علی الفرات، واقتصارها علی الطرق المحاذیة لنهر دجلة، مما یجعل موقع بغداد أفضل منه لوقوعه علی طریق أرمینیة والرقة وشمال الفرات وکل ما یأتی من البحر المتوسط ودوله الإسلامیة والأجنبیة، والتی کانت تعتبر أفضل التجارات.

ولا شک فی أن الخلیفة العباسی أراد أن تکون مدینته التی یبحث عنها فی مکان ذی مورد للرعیة، لیکون المکان رافقاً بهم. وهذا ما دعا المنصور لرفض بارما، فعندما ذکر له موضع بارما وجبوه له لاشتماله علی خصائص، خرج إلیه بنفسه فقال لهم: "أرید موضعاً یرتفق الناس به ویوافقهم مع مؤنهم لی، ولا تغلوا علیهم الأسعار ولا تشتد فیه المؤونة، فإنی إن أقمت فی موضع لا یجلب إلیه من البر والبحر شیء، غلت الأسعار وقلت المادة واشتدت المؤونة وشق ذلک علی الناس. وقد مررت فی طریقی علی موضع فیه مجمعة هذه الخصال، فإنا راجع إلیه وبائت فیه، فإن أجمع لی فیه ما أرید من طیب اللیل والموافقة مع احتماله للجند والناس، بنیته" (الطبری، ۱۳۸۷، ج۷، ص ۶۱۵).

تظهر لنا النظرة الحادة الاقتصادیة والرغبة فی توفیر الموارد للرعیة وللجند خاصة من الغذاء الیومی، وهذا أمر یتعلق بالأمور السیاسیة والعسکریة، لأن مکمل الروایة: "فإذا قطعت البحر أو القنطرة فلا یصل إلیک عدوک". فأراد أن یتوافر له مصدر عیش ثابت فی الظروف الطارئة (الحرب) الذی تمثل فی الظهیر القوی الاقتصادی الذی یلبی احتیاجاتهم بصورة دائمة. إن الخصائص الطبیعیة للمنطقة التی قامت فیها بغداد، والتی تتمثل فی الأرض والمناخ

وتوفر المياه من تلك الشبكة الرائعة من الأنهار والجداول مع انبساط الأرض وسهولة إجراء المياه فيها وريها جميعاً، لتعطى بغداد تلك القوة الاقتصادية (الجبورى، ١٩٧٠، ص ٢١٢)، وتعطى أكلها كل يوم. وإدراك الخليفة العباسى لذلك جعلها جزيرة بين الفرات ودجلة، والعلاقات الإيكولوجية موجودة، وهى ميناء بحرى إلى الخليج العربى بدلاً من البحر الأحمر، حتى انتقل الفعل السياسى والبشرى من دمشق والشام الأموية إلى بغداد والعراق، مما أدى إلى انتقال التجارة والأهمية الملاحية من طريق مصر والبحر الأحمر إلى الخليج العربى (حمدان، ١٩٨٤، ص ١١٤). وقد ورد ذكر هذا الظهير إذ يقول: "إنى أرى أن تنزل بين أربعة طساسيج: فى الجانب الغربى طسوجان وهما قطربل وبادرويا، وفى الجانب الشرقى طسوجان وهما نهر بوق وكلواذى، فتكون بين نخل قرب ماء، فإن أجذب طسوج فتأخرت عمارته، كانت الطسوج الأخر العمارات" (ابن الأثير، ١٤٠٧، ج٥، ص ٥٥٨-٥٥٩؛ الطبرى، ١٣٨٧، ج٧، ص ٦١٦-٦١٧؛ ابن الجوزى، ١٩٩٥، ص ٨).

فهو ظهير زراعى خصب غزير الماء ملائم المناخ. وقد أفادت بغداد من نظام الرى السيحى لأرضها الخصبة المتمثلة فى ترب على ضفاف الأنهار وأحواضها، إذ إن الفرات يعلو دجلة عند موقع بغداد بـ ١٨ متراً (الأشعب، ١٩٨١، ص ١٨). ومن هنا يتضح العامل الاقتصادى لموقع بغداد آنذاك بشكل جلى، ولا يخفى على المنصور ذلك من خبرته التى درسها. وهذا جانب مهم، إذ هو جانب اقتصادى فى اختيار موقع المدن، ولا سيما إذا كان سكان هذه المدينة أنفسهم يعملون فى هذا الظهير الزراعى.

النظام الإقطاعى فى العصر السلجوقى

النظام الإقطاعى هو الأساس الذى قامت عليه الملكية فى عهد السلاجقة، فزعماؤها يعتبرون أنفسهم زعماء أقوامهم، ويرون أن حكمهم يمتد حيث ارتحل قومهم، فليس مرتبطاً أو محددا بمساحة معينة من الأرض. وفى إيران، أصبحت قاعدة للسلاجقة، فاعتبر السلاجقة الملكية ضيعة يمتلكها نيابة عن قومه، وأخذ يقطع الأراضى فى تلك المملكة على أقربائه ومؤيديه. وهذا التنظيم الإقطاعى لا يتعارض مع الملكية الفردية ولا يمسها، لأنه تعلق بخراج الأرض دون الأرض (أمين، ١٣٨٥، ص ٢٠٧-٢٠٨). ورغم شدة سياسة نظام الملك، فإن الذين تملكوا الأراضى صاروا يميلون إلى الاستغلال، وكل إقطاعى اعتبر إقطاعه ملكاً وراثياً، وأخذوا يسيئون للفلاحين.

الأتابكيات

من مظاهر الحكم السلجوقى فى العالم الإسلامى ظهور نظام الأتابكية، الذى هو فى الحقيقة نتيجة للسياسة التى اتبعها السلاجقة فى النظام الإقطاعى. وقد انتشرت الإقطاعات فى العالم السلجوقى خاصة بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ۴۸۵هـ والأتابكية هى: إمارة يقطعها السلطان السلجوقى لأحد المقربين، ولكنا نلاحظ أن أكثر مماليک السلاجقة كان لهم نصيب وافر فى الحصول على مناطق نفوذهم (أمين، ۱۳۸۵، ص ۲۰۹).

الوضع الاجتماعى

يقصد بالحالة الاجتماعية فى بلد من البلاد، ذكر طبقات المجتمع فى هذا البلد من حيث الجنس والدين، وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض، باعتبار أن الاجتماع الإنسانى ضرورى، وأن الإنسان مدنى بالطبع، أى لا بد له من الاجتماع (ابن خلدون، ۲۰۰۰، ج۱، ص ۴۱)، فالإنسان لا ينسجم مع الآخرين مدفوعاً برغبته بقدر ما ينسجم معهم بحكم العادة والتقليد؛ لأنه يخشى العزلة، لذا نجده يتحد مع غيره من الناس؛ لأن اعتزاله يعرضه للخطر (ديورانت، ۱۹۸۸، ج۱، ص ۶۷).

وقد أودع الله سبحانه وتعالى التنوع فى الطبيعة باعتباره ملمحاً من ملامح الجمال، لذلک عندما نجد فى مجتمع ما تعدد الأعراق والطوائف فى النسيج الاجتماعى، فهذا الأمر من وجهة نظرنا يُعد دعامة من دعائم القوة وليس الضعف. وكما يعرف الجميع، فإن أرض العراق هى من أغنى مناطق العالم التى استقطبت مختلف الشعوب والديانات والقوميات، ولا يمكننا أن ننسى أن الشعوب والأمم التى عاشت فى العراق منذ أقدم العصور تفاعلت وتصاهرت وتعايشت، فقامت بينهم صلات وعلاقات مع بعضهم البعض، لذلک شادوا حضارة عظيمة. وتُعد العلاقات الاجتماعية السليمة مظهراً من مظاهر الحضارة العامة، وهى بلا شک تتناسب طردياً مع رقى المجتمع ووعيه. والمجتمع البغدادى هو أحد المجتمعات الإسلامية التى أسهمت فى بناء القيم الموروثة قبل الإسلام والقيم المضافة بعد الإسلام، فكان مزيجاً من هنا وهناک، وقد شكل صورته المزدهرة. فالمجتمعات عبارة عن مجموعة من الأسر التى وحدت بينها المصالح العامة والانتماء إلى القبائل العربية التى اندثرت فى المناطق العربية، إذ إن المجتمع العربى قبل الإسلام هو مجتمع ترک فيه الفرد أثراً عميقاً من الموروث الاجتماعى بسبب طبيعة ومقتضيات الحياة فيه والصلات الأسرية. ومن هنا ورث المجتمع البغدادى هذا الموروث الاجتماعى الذى يحظى فيه الرجل بمكانة مرموقة فى الأسرة والمجتمع، وتوثقت أواصر الاحترام بين أفراد الأسرة وبين أفراد المجتمع، من خلال هذه العادات الموروثة، وهى

فى عمومها أسهمت بشكل أو بآخر فى بناء تلك العلاقات الاجتماعية سواء أكانت بين أفراد العائلة أم بين أفراد المجتمع عموماً. ويضاف إلى ذلک أنه تعايش مع باقى الـديانات تعايشـاً سلمياً. وقد أشاد الخطيب البغدادى بوصف أهل العراق، فقال: "صفوة الأرض ووسطها، يحيط به ستة أقاليم هى: بلاد الترک، والهند، والصين، والشام، والحجاز، ومصر. لذلک اعتدلت ألوان أهله، وامتدت أجسامهم، وسَلِموا من شقرة الروم والصقالبة، ومن سواد الحبش وسائر أجناس السودان، ومن غلظة الترک، ومن جفاء أهل الجبال وخراسـان، ومـن دمامـة أهـل الصـين... واجتمع فى أهل هذا القسم من الأرض محاسن جميع أهل الأقطار، بلطف من العزيز القهـار. وكما اعتدلوا فى الخلقة، كذلک لطفوا فى الفطنة، والتمسک بالعلم والأدب ومحاسن الأمـور" (الخطيب البغدادى، ١۴١٧، ج١، ص ٢٢-٢٣). إن المجتمع العراقى فى العصر العباسـى كـان مكوناً من العرب ثم الفرس وخاصة الخراسانيين الذين شاركوا فى الدعوة العباسـية وقيامهـا (الطبرى، ١٣٨٧، ج٧، ص ٩۴-١٠٠؛ ابن الأثير، ١۴٠٧، ج۵، ص ٢٢۴-۵٣١). ومن فئـات المجتمع فى ذلک العصر: أهل الذمة، وهم اليهود والنصارى، والصابئة وغيرهم، الذين تمتعـوا بكثير من ضروب التسامح الدينى، حتى كان فى بغداد والبصـرة والحيـرة (الحمـوى، ١٩٩۵، ج٢، ص ٣٢٩)، والموصل ومناطق متفرقة من العراق كثير من الأديـرة يقـيم فيهـا النصـارى شعائرهم الدينية (الشابشتى، ١۴٠٩، ص ۴٢٩).

التعاريف

معنى الاجتماع اصطلاحاً:

عرّف علماء الاجتماع المجتمع على أساس النزعة التى ينتمى إليها، فقـد عرفـه بعضـهم بأنه: "ذلک النوع الإنسانى المتعدد الحالات، سواء أكان فى حالـة تحضـر أم حالـة بدائيـة، شرط ألا يكون فى حالـة عزلـة" (الـزين، ١٩٩٠، ج٣، ص ٨۵١-٨۵٢). وقيـل: إن كلمـة "مجتمع" يجب أن تقتصر على المجموعة التى بينها وحدة ثقافية تميز مجتمعـاً عـن مجتمـع آخر (الزين، ١٩٩٠، ج٣، ص ٨۵٢). ويرى البعض الآخر أنه: "أكبر جماعة إنسـانية ينتمـى إليها الفرد" (الزين، ١٩٩٠، ج٣، ص ٨۵٣). وقيل: هو عدد من الجماعات أو مجموعـة مـن الناس، يقيمون فى منطقة جغرافية معينة، ويعيشون معاً تلقائياً لفترة دائمة نسـبياً، ممـا يـنجم عنه تفاعل اجتماعى وعلاقات اجتماعية (الزين، ١٩٩٠، ج٣، ص ٨۵٣).

طبقات المجتمع العراقى فى العصر العباسى

ومن الجدير بالذكر أن طبقات أخرى ظهرت فى المجتمع العراقى، فرضها الواقع السياسى

والاقتصادی خلال العصر العباسی فی العراق وفی عموم أمصار الدولة العباسیة. ونتیجة لذلک اتسعت الهوة بین طبقات المجتمع العراقی، وظهر التباین الکبیر فیما بینها، وهذه الطبقات هی:

۱- طبقة الوزراء: هم من یستوزرهم الخلیفة، وتقع علی عاتقهم مسؤولیة إدارة الدولة، ولا یرجعون إلی الخلیفة إلا فی المعضلات الکبیرة (أکبر، ۱۴۲۰، ص ۳-۱۸).

۲- طبقة الولاة: وهؤلاء یتم انتدابهم لیکونوا ولاة علی بعض الأمصار، یرتبطون بدیوان الخلافة، ویؤدون واجباتهم تجاه الخلیفة، ویرتبطون مباشرة بالوزیر (الخطیب البغدادی، ۱۴۱۷، ج۸، ص ۱۶-۲۰).

۳- طبقة الموظفین وکبار التجار: وهاتان الطبقتان تُعدّان من الطبقات الأرستقراطیة التی تتمتع بمیزات، وتحتل مکانة مرموقة عند الخلیفة (الثعالبی، ۱۳۹۷، ص ۳۸).

۴- طبقة الفقراء والمسحوقین: هؤلاء یمثلون الطیف الکبیر فی المجتمع العراقی، وهم من الفلاحین والعاملین بالأعمال الرعویة والزراعیة، فضلاً عن الفقراء والمساکین والمعوزین (الثعالبی، ۱۳۹۷، ص ۳۹-۴۰).

ذکر الخطیب البغدادی أن مدینة بغداد صارت مدینة مال، ومدینة الأغنیاء وذوی الثراء، وهذه الطبقات وحدها هی القادرة علی الاستمتاع بالحیاة (الخطیب البغدادی، ۱۴۱۷، ج۸، ص ۱۶-۲۰). وفی موضع آخر قال: "لیس فی الأرض بلدة واسعة ولا بادیة شاسعة ولا طرف من الأطراف إلا ووجدت بها المدینی والبصری والحیری، وتری شنف الفقراء للأغنیاء وبغضهم لهم وتنکرهم علیهم وتسرع الرغبة إلی الملوک، ویغض الماشی للراکب، وعموم الحسد فی المتفاوتین" (الخطیب البغدادی، ۱۴۱۷، ج۸، ص ۲۲).

رافق الصراع السیاسی الذی کان موجوداً علی ساحة بغداد فی القرنین الرابع والخامس الهجریین الحیاة الاجتماعیة. وکان أبرز مظاهر هذا النزاع الخلافات الطائفیة والعنصریة أو العرقیة، والتی تسببت عنها اضطرابات اجتماعیة کثیرة (الطبری، ۱۳۸۷، ج۳، ص ۳۲۱). فقد منح البویهیون حریات واسعة لمختلف الطوائف الإسلامیة، فأصبحت کل طائفة من هذه الطوائف قادرة علی أن تمارس معتقداتها وطقوسها وسلوکیاتها الخاصة، وتدافع عن نفسها کلما اقتضی الحال وتاحت الفرصة (ابن الجوزی، ۱۴۱۵، ج۷، ص ۲۰۶). وکان لهذه السیاسة آثار سلبیة، تمثلت بالدرجة الأولی فی حدوث الاعتداءات والفتن والنزاعات الشدیدة بین الطوائف، وآثار أخری إیجابیة تمثلت فی عقد الکثیر من المناقشات والمناظرات الفکریة والعقائدیة التی شجعت بدورها علی النهوض بالحرکة العلمیة والثقافیة (المعتوق، ۱۹۸۰:

١٢).

وفى القرن الخامس الهجرى كثر اللصوص نتيجة لضعف الدولة العباسية وما رافقه من اضطراب سياسى واجتماعى نتيجة لمجيء الجيوش البويهية والسلجوقية، وكنتيجة للصراع المذهبى الذى ساد القرن الخامس بطوله. ففى سنة ٤٢٠هـ ظهر اللصوص على إثر وقوع الفتن فيها، فسرقوا أموال الناس بشكل ظاهر من دون خوف. وفى السنة التالية ظهر اللصوص من الأكراد فسرقوا دواب الجند الأتراك، حتى جعلوهم يخفونها فى بيوتهم. كذلك فعل الملك البويهى جلال الدولة نفسه، إذ أخفى دوابه فى بيت من بيوت دار المملكة. ولكن دور الحكومة لم تمنع اللصوص من الدخول فيها وسرقتها، كما حدث فى سنة ٤٢٢هـ عندما دخلوا دار المملكة وسرقوا الثياب منها. وفى سبيل الحصول على ما يريدون سرقته، كانوا لا يتورعون عن قتل من يقف فى طريقهم (فهد، ١٣٨٧: ٨٣). وقد كثرت كبسات اللصوص، فكان إذا ظفر السلطان بلص قتلته العامة قبل أن يصل إلى الوالى (ابن مسكويه، ١٣٧٠، ٢، ٢٧٥). وأما طريق الحج من بغداد إلى الحرمين، فلم يكن دائماً سهلاً وميسوراً، فقد يتصدى الأعراب للحجاج أثناء رجوعهم أو عودتهم عن طريق الشام إلى بغداد، كما حدث فى عام ٤١٤هـ وعام ٤١٥هـ أما إذا كانت تحركات الأعراب قد حدثت قبل ذهاب الحجاج من بغداد، ولم تطمئن الحكومة إلى جانبهم، فإن موسم الحج يبطل ويعود الحجاج إلى أوطانهم، كما حدث فى سنوات ٤٠١، و٤١٠، و٤١١، و٤١٦، و٤١٧، و٤١٨، و٤١٩، و٤٢١، و٤٢٢، و٤٢٦، و٤٣٠، و٤٨٦هـ لذلك كانت الحكومة تعقد مع الأعراب اتفاقات خاصة بهذا الشأن، وتعطيهم الأموال لقاء التزامهم جانب الهدوء وعدم التعرض للحجاج. وعندما تطمئن الحكومة تعلن عن فتح الطريق. أما إذا رجع الحجاج من الحرمين، فيكون ذلك موسماً آخر للعامة كى تفرح وتحتفل وهى تستقبل الحجاج.

وسوف نبدأ باستعراض المجتمع البغدادى من الأسرة والعائلة البغدادية وعلاقة أفرادها بعضهم بالبعض الآخر، مما يعكس مدى التماسك الاجتماعى الذى كان سائداً على الرغم من الظروف السياسية المضطربة. فقد حافظت الأسر البغدادية على قيمها وتقاليدها العربية والإسلامية، وكان للنساء دور بارز فى الحياة الاجتماعية والثقافية، كما تشير العديد من المصادر إلى مشاركتهن فى الأنشطة العلمية والدينية. كما كانت العلاقات الجوارية متينة، والتعاون بين الجيران سمة أساسية من سمات المجتمع البغدادى، مما ساهم فى تخفيف وطأة الأزمات المتلاحقة التى مرت بها المدينة خلال تلك الفترة.

المصادر:

۱. ابن الأثیر، عز الدین علی بن محمد الشیبانی. (۱۴۰۷هـ/۱۹۸۷م). الکامل فی التاریخ (ج. ۵، ۱۰). دار الکتب العلمیة.
۲. ابن الجوزی، جمال الدین أبی الفرج عبد الرحمن بن علی البغدادی. (۱۴۱۵هـ/۱۹۹۵م). المنتظم فی تاریخ الملوک والأمم (ج. ۵، ۷، ۸، ط. ۱). دار الکتب العلمیة.
۳. ابن خلدون، عبد الرحمن. (۲۰۰۰م). تاریخ ابن خلدون (ج. ۱، ۳). (خلیل شحادة، ضبط المتن والحواشی). دار الفکر.
۴. ابن مسکویه، أحمد بن محمد. (۱۳۷۰هـ/۱۹۵۰م). تجارب الأمم (ج. ۲، ۶). دار المثنی.
۵. ابن کثیر، إسماعیل بن عمر. (۱۴۰۷هـ/۱۹۸۷م). البدایة والنهایة (ج. ۱۱، ۱۲). مکتبة المعارف.
۶. أبو نصر، محمد عبد العظیم. (۲۰۰۱م). السلاجقة: تاریخهم السیاسی والعسکری (ط. ۱). عین للدراسات والبحوث الإنسانیة والاجتماعیة.
۷. أکبر، فائزة إسماعیل. (۱۴۲۰هـ/۲۰۰۰م). وزراء العصر العباسی الأول من (۱۳۲-۲۳۲هـ). مجلة المؤرخ العربی، ۱(۸)، ۳-۱۸.
۸. الأشعب، خالص. (۱۹۸۱م). مدینة بغداد: نموها، بنیتها، تخطیطها. دار الحریة للطباعة.
۹. الأصفهانی، عماد الدین محمد بن حامد. (۱۳۱۸هـ/۱۹۰۰م). دولة آل سلجوق. مطبعة الموسوعات بمصر.
۱۰. الأمین، حسن. (۱۳۸۵هـ/۱۹۶۵م). تاریخ العراق فی العصر السلجوقی [رسالة جامعیة]. جامعة الإسکندریة. المکتبة الأهلیة، مطبعة الرشاد.
۱۱. الأمین، حسین. (۱۳۸۵هـ/۱۹۶۵م). تاریخ العصر السلجوقی. مطبعة الرشاد.
۱۲. الأنصاری، سعاد. (۱۹۸۷م). الحیاة العلمیة فی بغداد. دار الرشید.
۱۳. البغدادی، الخطیب أبو بکر أحمد بن علی. (۱۴۱۷هـ/۱۹۷۷م). تاریخ بغداد (ج. ۱، ۸، ۹). (مصطفی عبد القادر عطا، تحقیق). دار الکتب العلمیة.

١٤. الثعالبى، أبو منصور عبد الملک بن محمد بن إسماعيل. (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م). تحفة الوزراء. (حبيب على الراوى وابتسام مرهون الصفار، تحقيق). مطبعة العانى، وزارة الأوقاف.
١٥. التنوخى، القاضى أبو على الحسن بن على. (١٩٩٥م). نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (ج. ١، ٨). (عبود الشالجى، تحقيق). دار صادر.
١٦. الجبورى، محمد. (١٩٧٠م). بغداد: تاريخها وعمرانها. دار اليقظة العربية.
١٧. جواد، محمد على. (١٩٧٨م). النظريات عند الطوسى. دار الحكمة.
١٨. جواد، مصطفى. (١٩٦٧م). أبو جعفر النقيب. مطبعة المعارف.
١٩. حمدان، جمال. (١٩٨٤م). جغرافية المدن. عالم الكتب.
٢٠. الحكيم، حسن. (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م). مدرسة بغداد. دار السلام.
٢١. الحموى، ياقوت. (١٩٩٥م). معجم البلدان (ج. ٢، ٤). دار صادر.
٢٢. الخطيب البغدادى. انظر: البغدادى، الخطيب.
٢٣. الدورى، عبد العزيز. (١٩٧٠م). تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى. مركز دراسات الوحدة العربية.
٢٤. ديورانت، ويل. (١٩٨٨م). قصة الحضارة (ج. ١). (محمد بدران، ترجمة). دار الجيل.
٢٥. الزين، زهرى. (١٩٩٠م). الموسوعة العالمية الخضراء للمعرفة (ج. ٣). دار الموسوعات.
٢٦. السامرائى، خليل. (١٩٧٠م). الإقطاع فى العراق. مطبعة الإرشاد.
٢٧. السبحانى، جعفر. (١٤١٨هـ/١٩٩٨م). موسوعة طبقات الفقهاء (ج. ٢، ط. ١). مؤسسة الإمام الصادق.
٢٨. سعادة، صفية. (١٩٨٨م). من تاريخ بغداد الاجتماعى فى الفترتين البويهية والسلجوقية (ط. ١). دار أمواج للطباعة.
٢٩. الشابشتى، أبو الحسن على بن محمد. (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م). الديارات. (كوركيس عواد، تحقيق، ط. ١). دار العربى.
٣٠. الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير. (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م). تاريخ الرسل والملوک (ج. ٣، ٧). (محمد أبو الفضل إبراهيم، تحقيق، ط. ٢). دار التراث.

۳۱. طقوش، محمد سهیل. (۲۰۰۹م). تاریخ الدولة العباسیة (ط. ۷). دار النفائس.
۳۲. الطوسی، محمد بن الحسن. (۱۴۱۷هـ/۱۹۹۷م). العدة فی أصول الفقه (ج. ۱). (محمد رضا الأنصاری، تحقیق، ط. ۱). ستارة قم.
۳۳. الظلاعین، عبد الله. (۲۰۰۹م). السلع التجاریة فی أسواق بغداد فی العصر العباسی الأول. دراسات: العلوم الإنسانیة والاجتماعیة (الجامعة الأردنیة)، ۳۶(۳)، ۶۱۹-۶۲۴.
۳۴. فهد، بدری محمد. (۱۳۸۷هـ/۱۹۶۷م). العامة فی بغداد فی القرن الخامس الهجری. مطبعة الإرشاد.
۳۵. الفضلی، عبد الهادی، (۱۴۱۳هـ/۱۹۹۳م)، تاریخ التشریع الإسلامی (ط. ۱). دار النصر.
۳۶. لسترنج، کی. (۱۹۵۴م). بلدان الخلافة الشرقیة. (بشر فرنسی وکورکیس عواد، ترجمة). مطبعة الرابطة.
۳۷. متز، آدم. (۱۹۶۷م). الحضارة الإسلامیة فی القرن الرابع الهجری (ج. ۱). (محمد عبد الهادی أبو ریدة، ترجمة). دار الکتاب العربی.
۳۸. المعتوق، أحمد محمد. (۱۹۸۰م). الشریف المرتضی: حیاته الثقافیة وأدبه ونقده (ط. ۱). المؤسسة العربیة للدراسات والنشر، دار الفارس.
۳۹. المسعودی، أبو الحسن علی بن الحسین. (۱۹۶۵م). مروج الذهب ومعادن الجوهر (ج. ۴). (محمد محیی الدین، تحقیق). المکتبة التجاریة الکبری.
۴۰. النویری، شهاب الدین أحمد. (۱۴۲۳هـ/۲۰۰۲م). نهایة الأرب فی فنون الأدب (ج. ۲۵). دار الکتب العلمیة.
۴۱. وفاء محمد علی. (۱۹۷۷م). الخلافة العباسیة فی عهد تسلط البویهیین. دار النهضة العربیة.
۴۲. الیعقوبی، أحمد بن إسحاق. (۱۸۹۲م). البلدان. مطبع.